

المحاضرة الثالثة

محاولات إصلاح الامبراطورية في الغرب، الامبراطور دقلديانوس، الامبراطور

قسطنطين

دقلديانوس وصل الى منصب الامبراطور عام 284م بدعم الجيش له، ومنذ اعتلائه للعرش عمل جملة من الاصلاحات على **المستوى السياسي** منها تقوية مركز الامبراطور فجرد مجلس الشيوخ من جميع ماتبقى له من سلطات. ولم يعد ذلك المجلس سوى مجلس بلدي يخص العاصمة روما، وصارت السلطة مركزة بيد الامبراطور يساعد في الحكم جهاز اداري ضخم وكان الامبراطور بمساعدته ذلك الجهاز يشرف على كل جزء من أجزاء الإمبراطورية، وبهذا قضى دقلديانوس على النظام الذي وضعه اوغسطس والذي كانت السلطة فيه موزعة بين الامبراطور ومجلس الشيوخ.

قام دقلديانوس ببعض الاصلاحات لمواجهة بها الأزمة التي انتابت الإمبراطورية، ومنها قيامه بتقسيم الإمبراطورية إلى قسمين شرقي وغربي حكم كل منها حاكم يحمل لقب اوغسطس تولى دقلديانوس القسم الشرقي بينما تولى مكسميان القسم الغربي، ثم تم تقسيم كل جزء الى قسمين يحكمه شخص باسم قيصر، وكانت القرارات والامور تصدر بأسمائهم جميعاً، ورغم هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية في العالم الروماني شيئاً فشيئاً وساد مبدأ التقسيم الذي كان سبباً في الفصل الدائم بين أجزاء الإمبراطورية في بضع سنين قليلة.

اما **بالنسبة للجيش** فقد أعاد دقلديانوس تنظيمه واستمرت عملية تحصين المدن الداخلية وأصبحت فرق الحدود مقيمة، وصار اصحابها من ذوي الامتيازات ومن كبار الملاكين ولجاء دقلديانوس إلى أشاء قوة جديدة متحركة يمكن نقلها بسرعة من محل إلى اخر من أي جزء من أجزاء الإمبراطورية قد يتعرض إلى الخطر، ولتوفير ما يقارب من 500 الف جندي وهو ماتحتاجه الإمبراطورية، اضطرت الحكومة الرومانية إلى تشجيع الجرمان والبربر على الانخراط في جيشها والواقع ان قبائل جرمانية بأكملها سمح لها باجتياز حدود الإمبراطورية على اعتبار انها حليفة للإمبراطورية وإنما تكون جزء من قوة دفاعها.

اما **اصلاحاته الاقتصادية** فقد ضرب عملة جديدة جعل فيها نسبة المعادن النفيسة عالية، كما حاول تثبيت ملكية الأرض من اجل تسهيل فرض الضرائب وجبايتها، ونظم التجارة الداخلية والخارجية.

ومن إصلاحاتها الاقتصادية المهمة ايضا تنظيم اصحاب الحرف المختلفة في نقابات اصناف وكان الغرض من ذلك إجبار كل نقابة على إنتاج مقدار معين من الوحدات الصناعية وذلك لغرض المحافظة على كمية الإنتاج الذي كان يعاني نقصاً مستمراً، كما ان تنظيم اصحاب الحرف في نقابات كان ييسر امر جباية

الضرائب من أفرادها، فقد صارت كل نقابة ملزمة بدفع مقدار معين من المال إلى الحكومة وهي بدورها تجمع ذلك المال من منتسبيها واجبر دقلديانوس الأبناء على الانخراط في نفس الحرف التي كان يمنحها إباؤهم وكان لهذه الإجراءات أثرها في تخفيف هذه الضائقة المالية التي كانت تعاني منها الحكومة ولكنها في الوقت نفسه الحقت ابلغ الضرر بالمشاريع الفردية، وأدت على المدى البعيد إلى ركود الحياة في المجتمع الروماني. بالرغم من هذه الأعمال فإنه لم يتمكن من معالجة الأزمة الاقتصادية إذ ان المشاريع الإصلاحية وخصوصاً بالنسبة للجيش تطلب امولا طائلة فاضطر إلى فرض ضرائب جديدة من اجل الحصول على هذه الأموال. إضافة إلى الضرائب السابقة، وكانت معظم هذه الضرائب قد انصبت على كاهل الطبقة الفقيرة لان الطبقة العليا كانت تتمتع بلاعفاءات من الضرائب ، حتى انهارت عزيمة أصحاب الحرف والأصناف وأردوا ترك أعمالهم بالرغم من القوانين المجحفة بحقهم.

حاول دقلديانوس جمع كافة السلطات بيده فأصبح إمبراطوراً مستبداً وأصبحت كلمته قانوناً، إما عن موقفه من المسيحية فإنه قاوم المسيحيين فشرع في عام 303م قانون حرم المسيحيين من الحقوق المدنية كما أمر بهدم كنائسهم وحرق الإنجيل وأباح قتل المسيحيين. اذا رفضوا تقديم الهدايا والقرايين للالهة الرومانية فقتل الكثير منهم حتى سمي عهده بعصر الشهداء.

الإمبراطور قسطنطين (305-337م):

أعلى الامبراطور قسطنطين العرش في عام 305، بعد ان قضى على جميع منافسيه الطامعين في العرش، واكمل الاعمال التي بدأ بها دقلديانوس الإدارية والاقتصادية، واقر نظام الوراثة في الحكم حيث جعل هذا المنصب محصوراً في عائلته، حاول إنقاص الفرق العسكرية، استمر في الاعتماد على القبائل الجرمانية في تكوين فرق المرتزقة، وضاعف الضرائب لسد النفقات العسكرية وإقامة المؤسسات العامة، وجعل الحرف وراثية وانزل طبقة الصناع إلى مرتبة العبودية ومنع المزارعين من هجر قراهم والالتجاء إلى المدن.

من اهم الاعمال التي قام بها قسطنطين والتي تركت آثار واضحة اعترافه بالمسيحية وبناء مدينة

القسطنطينية.

1- الاعتراف بالمسيحية (مرسوم ميلان 313):

اعترف قسطنطين بالمسيحية كديانة في الدولة الرومانية وفق مرسوم ميلان عام 313 والذي بموجبه أوقف الاضطهاد ضد المسيحيين وارجع إلى الكنيسة أملاكها المصادرة، كما سمح لها بممارسة الطقوس الدينية، وحرّم أكراه المسيحيين على حضور العبادات الوثنية وأصبح للمسيحية صفة قانونية وكان هذا اكبر نصر ودعم للمسيحيين في العالم فانتشر على نطاق واسع فلم يحل القرن الخامس الميلادي حتى أصبحت جميع الشعوب الرومانية تدين بالمسيحية.

اختلفت الآراء في تحديد الأسباب الحقيقية وراء اعتراف قسطنطين بالمسيحية فالبعض عدها اسباب دينية فيما نسبها البعض لأسباب سياسية. وعلى العموم يقال إن قسطنطين اعترف بالمسيحية بعد ان رأى شارة الصليب التي ظهرت في السماء إثناء حربه مع مكسنتيوس عام 312م فاتخذها شعاراً للوائه في حربه، وبعد تحقيق الانتصار قرر الاعتراف بالمسيحية فضلاً عن الرأي الذي أشار إلى ان قسطنطين اعترف بالمسيحية عن قناعة وإيمان مستدين في ذلك إلى خلقه وتصرفاته تجاه المسيحيين مثل بناء الكنائس.

في الوقت نفسه ظهرت اراء اشارت إلى انه لم يعترف عن قناعة وإيمان مستشهادين بحجج عدة منها انه احتفظ لنفسه بمنصب الكاهن الاعظم وهو اكبر منصب في الديانة الرومانية (الوثنية)، كما إن النقود في زمانه كانت تحمل رسم الصليب على احد اوجهها واله الشمس الروماني على الوجه الاخر، وظل صديقاً للوثنية إلى اخر ايامه حتى سمع انه يبني له معبد خاص يتعبد به وسجل بعد مماته في سجل الهة الرومان. الواقع ان اعترافه بالديانة المسيحية جاء لأسباب سياسية إذ ان الامبراطور قسطنطين بعد ان رأى انتشار المسيحية وازدياد أنصارها أراد استغلال هذه القوة الجديدة كوسيلة لتوجيه شعوب الإمبراطورية المتباينة في تراثها ومعتقداتها وتاريخها، وأراد ان يستعين بقوة الكنيسة ومجالها في سبيل تثبيت مركزه واستغلالها كوسيلة للقضاء على الطبقات الثائرة على العلاقات الانتاجية القديمة القائمة على أساس نظام الرق والعبودية. وفي نهاية الامر نستطيع القول ان قسطنطين كان رجلاً على مستوى عال من الذكاء فلم يكن يستطيع ان انه مسيحي فيغضب الوثنيين ولم يكن يستطيع ان يعلن انه باق على وثنتيه وفي هذه الحالة يتطلب الامر منه ان يتخذ موقفاً من المسيحيين وهذا ما لم يحدث ، بل انه عايش الاثنين معاً وانه كان يميل إلى المسيحية شيئاً فشيئاً حتى اصبح في اخر الامر مسيحياً.

2- بناء مدينة القسطنطينية(استمر العمل بها من عام 324الى 330م):

ان السبب الرئيسي الذي جعل الابطرة الرومان يمنحون اهمية كبيرة للاقسام الشرقية من امبراطوريتهم هو بسبب العامل الاقتصادي لهذه المناطق بعد ان ازدادت الاضطرابات والحروب الداخلية في الاقسام الغربية وانعكاس هذه الحالة على العامل الاقتصادي فتأخرت الزراعة وقل الانتاج واضطربت التجارة، عكس الاقسام الشرقية من الإمبراطورية ، إذ حافظت هذه المناطق على اهميتها الاقتصادية وهذا جعل الامبراطور دقلديانوس يؤسس مدينة (نيقوميديا) على الشاطئ الشرقي لبحر مرمرة اما قسطنطين فقام بخطوة جريئة عندما نقل عاصمة الإمبراطورية إلى مدينته الجديدة التي بناها في الشرق عام 330م وهي القسطنطينية.

فضلاً عن الأسباب الدينية ومنها ان روما كانت مركز الديانة الوثنية، وفي الشرق يزداد عدد المسيحيين فاراد ان يبتعد عن نفوذ رجال الكهنوث الرومان الذين يتمتعون بنفوذ قوي منذ عهد الامبراطور دقلديانوس والذي ضرب المسيحية.

من الأسباب الأخرى التي دفعت قسطنطين لبنائها أهمية موقعها، فهي تقع على سواحل البسفور والدردينيل ويسيطر على طرق المواصلات البحرية ولابرية وقد اصبحت ملتقى الطرق التجارية التي تربط البحر الاسود ببحر ايجة وشمال حوريا وغربها بآسيا، كما ان هذا الموقع يتمتع باهمية عسكرية وسترراتيجية، يضاف إلى ذلك فربما ان قسطنطين فكر بهذه العاصمة الجديدة لكي تكون بعيدة عن هجمات البر ، كما ان شبه جزيرة البلقان كانت تمد الدولة الرومانية بخيرة الجنود، وان قسطنطين من اصل بلغاري فربما تاجر بذلك واتجه نحو الشرق، أو ربما اراد ان يقلد الاسكندر المقدوني في بناءه مدينة الإسكندرية.

ان نقل العاصمة إلى القسطنطينة قد ادى إلى انقسام الإمبراطورية انقساماً حقيقياً حتى اصبح كل من هذه الاقسام يتميز عن الاخر بوجوه متعددة، كما ضاع الامل في وحدة الدولة كما ساعد على قوة النفوذ البابوي في روما بعد ان اصبح المركز السياسي بعيداً عن روما.

س1/تكلّم عن اعمال الامبراطور دقلديانوس في الجانب السياسي والعسكري؟

س2/ قام الامبراطور دقلديانوس باعمال مهمة على المستوى الاقتصادي للإمبراطورية؟

س3/ماذا نقصد بمرسوم ميلان؟ ولماذا اصدره الامبراطور قسطنطين؟

س4/لماذا نقل الامبراطور عاصمته الى القسطنطينية عام 330 ؟ او ماهي الاسباب التي دفعت الامبراطور قسطنطين لبناء مدينة القسطنطينية؟.